

على هامش النفر:

« دفاع عن البلاغة »

تأليف الأستاذ الزيات

للأستاذ سيد قطب

- ١ -

—>>><<<—

شغلني الشواغل عن قراءة هذا الكتاب عند ظهوره ، اعتمادا على أنني قرأت معظم فصوله منشورة في « الرسالة » ... فلما عدت إليه في هذه الأيام ، وأنا أستمع كتب النقد الحديث في المكتبة العربية عامة ، وجدت أنني كنت مخطئا في اعتمادي على ما قرأته فصولا في الرسالة . فقراءة هذه الفصول شئ ، وقراءة كتاب كامل في موضوع معين شئ آخر . ووجدت أن القضية التي يبررها الكتاب جذيرة بأن تطول حولها الشروح والتعليقات ، والمناقشات ، في هذا الألوان بالذات .

فلعمرة الأولى بعد كتابي « عبد القاهر » في القرن الرابع الهجري ، تعرض قضية البلاغة على بساط البحث في هذا المحيط الشامل ، وتناقش بوصفها وحدة في بحث مستقل ، لا في صدد دراسة لكاتب أو كتاب (١) .

ونحن قد نخاف الأستاذ في الكثير من قضايا هذا الكتاب كما نواقته على أسس مبنية لهذا البحث . ولكن هذا كله شئ آخر لا يمس القيمة الذاتية للكتاب في المكتبة العربية بوصفه أول علاج شامل لقضية البلاغة بعد كتابي عبد القاهر . لا يقف فيه مؤافقه عند الأدب العربي وحده ، بل يسترشد كذلك بالنقد الفرنسيين ، ويتطور المذاهب الأدبية هناك ، كما يسترشد بالنقد العرب ، وتطور الأساليب في العصر الحديث .

وعنوان الكتاب قد يدل على موضوعه دلالة كافية « دفاع عن البلاغة » والأستاذ الزيات أول الكتاب المعاصرين بالدفاع

(١) يقال : إن هذه القضية مرشت في كلية الآداب بالجامعة المصرية وأنا لا أدري كيف مرشت هناك ولا في أي محيط مرشت . وأحسب أن الناس كذلك لا يدرون شيئا عن هذه المحاولة الموضوعية .

عن البلاغة . فهو صاحب « مذهب التسيق التعبيري » كما وضعت له عنوانه في كتابي القادم : « المذاهب الفنية المعاصرة » . ذلك المذهب المتفرع عن النفلوطي ، صاحب « مذهب الابتداع التعبيري » . والذي يحمل للتعبير ونسيفه أهمية كبرى في الفن بل الذي يجعل الفن هو أساس هذا « التسيق التعبيري » .

* * *

نحن نتفق مع الأستاذ في أساس القضية ، وهو أن العمل الفني في الأدب لا يوصف بالجودة إلا أن يتهيأ للفكرة الجيدة ، أو الإحساس الجيد ، أسلوبا جيدا ، وعبارة جيدة . وأن التعبير ليس نافذة في العمل الفني في الأدب ، وأنه لا يفسد ويرك ويتمتع ثم تبقى لهذا العمل قيمته الفنية .

« فالفكرة والصورة في الأسلوب كل لا يتجزأ ، ووحدة لا تتمدد . وإس أدل على اتحادهما من أنك إذا غيرت في الصورة تغيرت الفكرة ، وإذا غيرت في الفكرة تغيرت الصورة . فقولك : أعنيك ، غير قولك : إياك أعني . وقولك : كل ذلك لم يكن ، غير قولك : لم يكن كل ذلك . وقولك : ما شاعر إلا فلان ، غير قولك : ما فلان إلا شاعر . فترتيب الألفاظ في النطق لا يكون إلا بترتيب المعاني في الذهن ... ص ٦٠

« من ذلك نرى أن الأسلوب خلق مستمر : خلق الألفاظ بواسطة المعاني ، وخلق المعاني بواسطة الألفاظ . ومن ذلك أن الأسلوب ليس هو المعنى وحده ، ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مركب فني من عناصر مختلفة ، يستمدّها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه . تلك العناصر هي الأفكار والصور والمواقف ثم الألفاظ المركبة ، والمحسنات المختلفة . والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلي أو الحسي في صورة محسنة . وبالمطابقة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبر عنه أو لتنفّر منه » . ص ٦٢

أوافق الأستاذ على هذا الأساس الذي عبرت عنه على طريقتي في كتاب « التصوير الفني في القرآن » والذي سبقنا إليه الإمام عبد القاهر فعبّر عنه على طريقته في كتابه « دلائل الإعجاز » . ولقد قررت هذه الحقيقة هناك بهذه الفقرات :

« وبعض الناس حين ينظر في هذه الموضوعات (موضوعات القرآن) ويرى ما فيها من دقة وعظمة ، وصلاحية ومرونة ،

رتبها عليها بعض النقاد في الشرق والغرب، ولكن في شيء من الحماسة قد يجاوز القصد. قال في ص ٦٦ « وقد غالى علماؤنا البيانيون، فزعموا أن الماني شائمة مبذولة لا يملكها المبكر ولا السابق، وإنما يملكها من يحسن التعبير عنها، فمن أخذ معنى بلفظه كان سارقاً، ومن أخذه بيمض لفظه كان له سائلاً؛ ومن أخذه فكساء لفظاً أجود من لفظه كان هو أول به ممن تقدمه^(١). »

« على أن هذا الرأي الجريء لم يكن من رأى العرب وحدهم وإنما يراه معهم (بوفون) وأشباعه من كتاب الفرنج؛ فقد قرر في خطبته عن « الأسلوب » التي ألقاها يوم دخل الأكاديمية الفرنسية: إن الأفكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس، ولكن الأسلوب من الرجل نفسه.

« نعم قال (بوفون): إن الأسلوب من الرجل نفسه، ولم يقل: إن الأسلوب هو الرجل، كما شاع ذلك على الألسنة. ولم يرد بما قال، إن الأسلوب يتم عن خلق الكاتب، ويكشف عن طبعه كما فهم أكثر الناس؛ وإنما أراد أن الأسلوب، وبمعنى به النظام والحركة المودعين في الأفكار، هو طابع الكاتب وإمضاءه على الفكرة؛ ومعنى ذلك أن الأفكار تكون قبل أن يفرغها الفنان في قلبه الخاص، من الأملاك العامة؛ فإذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة للملائمة تصبح ملكاً خالصاً له، تسير في الناس موسومة بوسمه، وتعيش في الحياة مقرونة باسمه، فالأسلوب وحده هو الذي يملكك الأفكار وإن كانت لغيرك. ألا ترى أن أثر الأخلاق في بقاء الأمم وفنائها معنى من الماني الماثورة المطروقة، فلما أجاد شوقي سبك اللفظ عليه في بيته المشهور:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
أصبح بهذه الصبغة من حسناته المدودة، وأبياته المروية! « ونحن — على اتفاقنا مع الأستاذ في المبدأ السابق — نختلف معه هنا كما نختلف مع الجاحظ صاحب نظرية الماني الملقاة على قارعة الطريق.

فإن كون العمل الفني يتألف من المعنى والصورة، بحيث

وإحاطة وشمول، يحسبها ميزة القرآن الكبرى، ويحسب أن طريقة التعبير القرآنية تابعة لها، وأن الإعجاز كله كامن فيها، كما أن بعضهم يفرق بين الماني وطريقة الأداء، ويتحدث عن إعجاز القرآن في كل منهما على انفراد.

« أما نحن فنريد أن نقول: إن الطريقة التي اتبناها القرآن في التعبير، هي التي أبرزت هذه الأغراض والموضوعات، فهي كفاء هذه الأغراض والموضوعات.

« ولا يردنا هذا إلى تلك المباحث العقيمة حول اللفظ والمعنى وقد استغرقت من النقاد العرب ما استغرقت منذ أثارها الجاحظ فزعم أن الماني ملقاة على قارعة الطريق، ثم تابعه في البحث ابن قتيبة وقدامة وأبو هلال العسكري وغيرهم مخالفين ومؤيدين. وإنما نحسب أن « عبد القاهر » قد وصل فيها إلى رأى حاسم حين انتهى إلى أن اللفظ وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو لفظ، وإنما من حيث دلالاته يدور البحث فيه؛ وأن المعنى وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو خاطر في الضمير، وإنما من حيث أنه ممثل في لفظ يدور البحث فيه. وأنت المعنى مقيد في تحديده بالنظم الذي يؤدي به، فلا يمكن أن يختلف النظمان ثم يتحد المعنى تمام الاتحاد.

« لم يصنع « عبد القاهر » القضية هذه الصياغة المختصرة، فنحن نترجم عنه، وإلا فقد استغرق فيها كتاباً لا نستطيع نقله هنا، ولكن له فضله العظيم في تقرير هذه القضية، ولو خطا خطوة واحدة في التعبير الحاسم عنها لبلغ القروة في النقد الفني. فنحن نقول عنه: إن طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى، وأنه حيناً اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد، اختلفت صورتنا لهذا المعنى في النفس والذهن. وبذلك تربط الماني وطرق الأداء ربطاً لا يجوز الحديث بعده عن الماني والألفاظ كل على انفراد، فلن يبرز المعنى الواحد إلا في صورة واحدة؛ فإذا تغيرت الصورة تغير المعنى بمقدارها. وقد لا يتأثر المعنى العام في ذاته، ولكن صورته في النفس والذهن تتغير. وهي الممول عليها في الفن — إذ التعبير في الفن للتأثير — فإذا اختلف الأثر الناشئ عنه فالعنى المنقول يختلف بلا مرأى. « ص ١٩٠

ويرتب الأستاذ الزيات على هذه الحقيقة نتائجها الطبيعية التي

إلى أن يقول في ص ٢٨ :

« فأنت ترى أن الصياغة وحدها هي التي سمت بهذه المعاني الحسيسة إلى أفق البلاغة فتداولتها الألسن ، وتناقلتها الكتب . وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ ، فإن اللفظ في ذاته كاللوسيقى يخلب الأذن ، ويلذ الشعور وإن لم يترجم . أما المعنى فكالسكهرباء ، إذا لم يكن لفظه جيد التوصيل ، انقطع نياره ، فلا يعرب ولا يطرب . اقرأ قول القائل :

لما أطعناكم في سخط خالفنا لاشك سلّ علينا سيف نغمته
ثم وازن معناه الشريف ونسجه السخيف ، بما رويت لك من كلام أبي الميناء ، فلا يسمك إلا أن تقول كما أقول :

« إن القدر يوضع في آنية الذهب فيقبل ويحمل ، وإن المسك يوضع في تاجفة الطين فيرفض ويهمل »

وزيد نحن أن نقف عند الحقيقة الأولى التي انفتحت فيها مع الأستاذ كل الاتفاق ، فتجاوزها قد يوقع في الزلل والسبيل الأقوم في هذا المجال أن نقول :

إن العمل الفني لا يكون بالفكرة الجيدة المبتكرة وحدها ، ولا بالإحساس الصادق الجميل وحده ، إنما يتم بالصورة الجميلة التي يبرز فيها المعنى والإحساس

أما الصورة وحدها ، فلا نستطيع أن نخلق فناً إنسانياً خالداً إذا خلا من الإحساس الجميل الصادق ، ومن الفكرة العميقة المبتكرة ، ومن التصور الفذ الخاص ، هذه العناصر التي يجب أن يحسب لها حسابها في كل فن يراد له السمو أو الخلود

وأقصى ما تصل إليه الصياغة أن ترفع المعنى أو الإحساس في صورة عنه في صورة أخرى ، ولكنها لا ترفع بذاتها عملاً فنياً على عمل فني آخر ، إذا ارتفعت في الأول مع مفول معانيه ، وانخفضت في الثاني مع ارتفاع قيمته

إنها تصلح مقياساً حين تتحد الفكرة أو المعنى العام ثم تختلف الصورة ، ولكنها لا تصلح للقياس الدقيق حين يكون هناك فكرتان أو معنيان مختلفان في قيمتهما الإنسانية والشعورية وهذه كلمة أبي الميناء ، إنها ستبقى - على براعة صياغتها - مجرد نكتة لاذعة ، لا تتساي إلى الآفاق الشعورية في الفن العالي ، وكذلك سيبقى بيت « شوقي » حكمة مكرورة شائمة ، ولكنها

لا يمكن الفصل بينهما . لا يقتضى أن تكون الصورة وحدها هي العمل الفني الذي يثبت ملكيته لمن يجيده ، ولا يقتضى كذلك أن تكون جودة الصياغة كفيلاً برفع المعنى إلى مرتبة الجودة ، كما جاء في بحث الأستاذ في مكان آخر حيث يقول في ص ٧٣ :

« إذا حلّ في صدرك بعد ذلك أن تذهب إلى ما ذهبت إليه من أن تجويد الأسلوب يتضمن تجويد الفكرة ويضمن خلودها فدعك من أولئك الذين عادوا الكمال الفني بطبائعهم ... الخ » أو حيث يقول في ص ٢٦ :

« وليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لروني اللفظ وبراعة التركيب ، من أن المعنى المبذول أو الرذول أو التافه قد يتسم بالجمال ، ويظفر بالخلود ، إذا جاد سبك وحسن معرضه . ولا بأس أن أقدم إليك مثلاً من آلاف الأمثلة ، بلغ معناه الغاية في السوقية والفحش ، ومع ذلك نجب أن نسمه ونحفظه وتعيده لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تطلع دونها أكثر الأقلام .

« قال أبو الميناء الأعمى لابن ثوابه : بلغني ما خاطبت به أبا الصقر ، وما منعه من استقصاء الجواب - إلا أنه لم ير عرضاً فيمضيه ، ولا يجدا فيهدمه .

« فقال له ابن ثوابه : ما أنت والكلام يا مكدي^(١) ؟

« فقال أبو الميناء : لا ينكر علي ابن ثمانين سنة ، قد ذهب بصره ، وجفاه سلطانه ، أن يعول على إخوانه ، ثم رماه بمعنى فاحش مكشوف . فقال ابن ثوابه :

« الساعة أمر أحد غلماني بك .

فقال أبو الميناء :

« أيهما ؟ أألذي إذا خلوت ركب ، أم الذي إذا ركبت خلا ؟ » فانظر في هذه الجملة الأخيرة زهد ابن ثوابه في نفسه وفي زوجه ، وهما معنيان سوقيان يترددان كل ساعة على أسنة السباين من أوشاب العامة . وإنك مع ذلك تقف من هذه الجملة موقف المشدود المعجب ، تحركها لسانك ، وتعمل فيها فكرتك ، وتمرضها على مقاييس البلاغة وشروطها ، فتطول على كل قياس وتزيد على كل شرط .

(١) المكدي : من يبال الناس .

على أن الأستاذ يعود فيضع الأمر في نصابه إلى حد كبير
في ص ٧٨ حين يقول :

« خلص لنا من تخض هذه الأحاديث أن الأسلوب الفني
يتكون من الصورة والفكرة ، كما يتكون الماء القراح من
الهيدروجين والأكسجين . وكما استحال في فن الطبيعة أن
يتكون الماء من أحد عنصريه ، فقد استحال في فن الإنسان أن
يتكون الأسلوب من أحد جزأيه . ولا أقصد وجه الشبه بين
الأسلوب والماء ، على أن تركب هذا وذاك من عنصرين خربة
لارب ؛ إنما أمدُّ الشَّبه إلى أن نسبة الصورة إلى الفكرة في
الأسلوب يجب أن تكون كنسبة الهيدروجين إلى الأكسجين
في الماء ! وإذن لا يمد من الأساليب الفنية تلك المعاني الحكيمه
التي تعرض في معرض بشع من الركاكة والثناة والتعقيد والخطأ ،
ولا تلك الصور الموهه التي تنتفخ انتفاخ الفقاع ، وتبرق برين
الشر ، ثم لا يكون من ورائها غير فراغ وظلمة »

ففي هذا التقرير قصد ودقة تعود بنا إلى الحقيقة الأولى التي
اتفقنا عليها ، ونحسب لكل من الفكرة والصورة حسابها الصحيح
للسلام بنية سير قطب

لا تسلك في مستوى الحكمة النابعة من طبع ذى خصوصية
وامتياز . أما البيت الذي استشهد به الأستاذ على ما تصنعه الركة
بالمعنى العالي ، فهو صالح كذلك للاستشهاد به على سوقية التفكير ،
إذ لا خصوصية ولا ارتفاع عن تفكير الموام
والخصوصية في الأحاسيس والشاعر والأفكار شيء ثابت ،
وله قيمته التي لا تنكر ، وهي مناط الأصالة في الفن ، وكل
ما نريده هو القول بأن هذه الخصوصية لا تبدو كاملة إلا في صورة
جيدة الصياغة ، وفي أصالة أسلوب ونمير تكافئ أصالة الشعور
والتفكير ، وإلا بقيت مطموسة ناقصة لا تبدو في جلالها الكامل ،
ولا ترقى إلى الآفاق العالية في الفنون

وقد تحدث الأستاذ عن الأصالة والخصوصية في الأسلوب
حديثاً في غاية الجودة والصحة حين قال في ص ٨٢ :

« يراد بالأصالة في الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من
خصوصية اللفظ وطرافة العبارة ، وتلك هي الصفة الجوهرية
للأسلوب البليغ ، والسمة المميزة للكاتب الحق . وملاك الأصالة
ألا تكتب كما يكتب الناس ، ملاكها أن تكون أصيلاً في نظرتك
وكلتك وفكرتك وصورتك ولهجتك ، فلا تستعمل لفظاً عاماً ،
ولا تعبيراً محفوفاً ، ولا استعارة مشاعة . ولعلك قرأت فيما
قرأت كلاماً يرضى اللغويين ويمجّب النحاة ، ولكنه مضطرب
الدلالة ، مختلط الألوان ، تفه الذائق ، لا تستقله روح ، ولا تمتلئ
صورة . ذلك هو الأسلوب الذي صدر عن الذاكرة ، ولم يصدر
عن الذهن ، وثقل عن الناس ولم ينقل عن النفس ، وعبر بالجل
لا بالكلمات ، وأبان بالتقريب لا بالدقة ، وصرر بالسوقى المتبذل
لا بالأصيل المتبكر »

وكان من حق الأصالة في الشعور والتفكير أن تنال من
الأستاذ ما ناله الأصالة في الأسلوب والتعبير ، فالمعاني والأحاسيس
ليست شائمة ملقاة على جانب الطريق ، وإلا فأين تذهب الطبايع
الأصيلة الممتازة التي ترى الدنيا والأشياء بعين خاصة ، فإذا هي
تعيش في كون خاص بها من صنع أحاسيدها وتفكيرها ؟

تلك فلتة من فلتات الحماسة للبلاغة من صاحب « دفاع عن
البلاغة » يرد بها القلوة في إنكار قيمة التعبير ، فيجمل المزبة
كلها للتعبير

الأستاذ صلاح الدين المنجد يفرم كتابه الجدير :

الظرفاء والشحاذون

في العصر العباسي

وهو كتاب طريف لطيف ممتع

لا تستطيع أن تتركه حتى تقرأ كله

وقد طبع في « مطبعة الرسالة » طبعا متقنا

يطلب من دار « الرسالة »

ومن المكتاب الشهيرة ونمته ١٢ قرشاً غير أجرة البريد